المحاضرة الرابعة: مصادر تاريخ الجزائر القديم

1/ الآثار: بدأ الاهتمام بالأبحاث الأثرية في الجزائر أثناء فترة الاحتلال الفرنسي، فقد كانوا مهتمين بهذا الميدان نتيجة الظروف التي تطلبتها حركات الكشوفات الجغرافية التي واكبت حركات الاستعمار والهيمنة الأوروبية على المستعمرات والأقاليم الحضارية التي يقع معظمها جنوب وشرق حوض البحر المتوسط، وكانت هذه الحركات تهدف إلى التعرف على ماضي الشعوب وثقافتهم وخصوصياتهم، وكانت الجزائر ضمن الدول المستهدفة بهذه الأبحاث نظرا لتراكم الرصيد الحضاري على مر الأزمنة والعصور. لقد عملت إدارة الاحتلال على استعمال ضباط الجيش المختصين في المسح الطبوغرافي، بحيث كانوا يقومون بوصف وتدوين كل البقايا الأثرية أثناء قيامهم بأعمال المسح في المواقع الأثرية باستعمال طرق منهجية حديثة مبتكرة، تقوم على الوصف الموضوعي الدقيق للمواقع الأثرية والبقايا، والرفع الأثري، والرسم التشخيصي والمعماري، ثم التصوير الشمسي للمعالم والشواهد، إلى غير ذلك من التقنيات الأثرية الحديثة.

ولعل أشهر الحملات التي نظمها العلماء والضباط المختصون الفرنسيون في هذا المجال ما أسموه بحملات "الكشف العلمي للجزائر" (Explorations Scientifiques de l'Algérie) التي بدأوا في تطبيقها أواسط القرن التاسع عشر، وقد جادت هذه الحملات الاستكشافية على متاحفهم بكثير من الكنوز الأثرية الثمينة مثل: النقود الذهبية والفضية، والأواني الخزفية العالية الجودة، والتماثيل النادرة لمختلف المخلفات البشرية الناتجة عن تعاقب مختلف الحضارات التي قامت ونشأت على تراب الجزائر.

1- التنقيب الأثري: يعد علم الآثار من العلوم المساعدة والمهمة في التأريخ لتاريخ الجزائر في مختلف المراحل، خصوصا في عصر ما قبل التاريخ إلى غاية العصر الحديث، إذ يكون بإمكانه تقديم دلائل علمية تؤكد أو تفند الروايات التاريخية التي تزودنا بها المصادر الكتابية، فالحفريات الأثرية كشفت لنا عن كثير من الأسرار التاريخية التي كنا نجهلها، فمثلا نجد بحيرة "كيرار" (Lac Karar) التي كانت عبارة عن مستنقع واقع شمال ولاية تلمسان، وتوضح الخريطة التي أرودها (Marcellin Boule) في كتابه أنها تقع على بعد 2 كلم جنوب شرق مدينة الرمشي التي كانت تعرف قديما بـ (Motagnac)، وتتوسط هذه البحيرة كل من مدينة الرمشي وبلدية سيدي أحمد ودائرة الحناية وبلدية زناتة، واعتبرت هذه البحيرة مخزن مائي طبيعي للمياه الصاعدة، وبعد أن قامت السلطات الفرنسية بتجفيفه أثناء عملية استصلاح المناطق السهلية القريبة منه لصالح المعمرين الفرنسيين سنة 1894، ظهرت على السطح أدوات حجرية ومستحاثات حيوانية لفيلة أطلسية ودببة منقرضة، وأفراس نهر بيضاء، ووحدي القرن، والثيران والخيول، وأدوات حجرية مثل: الفؤوس اليدوية المصنوعة من الكوارتز والصوان المتبلر، إضافة إلى شظايا حادة ونصف مستديرة، وقد أجريت أبحاث على هذه المكتشفات من قبل عالم الآثار الفرنسي (م. بولي) (M. Boule) سنة 1899.

2- النقوش الأثرية: تعد النقوش الأثرية ثاني المصادر التاريخية، وهي مصادر علمية أكثر دقة من المدونات التاريخية، إذ تعكس حقيقة الوجود البشري في المنطقة التي يريد الباحث دراستها، وتمثل النقوش في الكتابات والرسومات الصخرية والجدرانة والرسومات الحائطية، وفي الأواني المنزلية والمعادن كالبرونز والفضة والحديد والخشب وغيرها، وهناك نقوش بارزة ونقوش غائرة، ومن النقوش الأكثر انتشارا في بلاد المغرب هي النقوش الدينية التي تكشف عن معتقدات مجتمع بلاد المغرب القديم، والنقوش

الجنائزية التي تكشف عن طقوس وطرق الدفن وتفسر نظرة مجتمعاتهم إلى الموت والآخرة، فقد وجدت مثلا نقوش بونية نذرية في معبد الحفرة بقسنطينة تؤكد انتشار عبادة الآلهة الفينيقية القديمة بين سكان بلاد المغرب، فتظهر النقيشة الأولى نص بوني قديم يقدس ويعظم الإله "بعل حامون" فهو رب الأرباب عند الفينيقيين والبونيين وسيد السماء والعواصف والخصوبة، وغالبا ما يظهر الإله "بعل حامون" في شكل صورة شيخ مسن يتكئ على كبش أقرن، أو شيخ يجلس على كرسي العرش ويمسك بالصولجان بيده،

3- النقوش اللاتينية والإغريقية (inscriptions/epigraphie): وهي عبارة عن لوائح نقوش دوت على الألواح الحجرية أو الرخام، وهي إما نقوش ذات طابع ديني أو جنائزي، أو ذات طابع رسمي أو شخصي، وهي مؤرخة فيما بين القرن الأول قبل الميلاد والقرن الرابع ميلادي، كتب جملها باللغة اللاتينية، مقابل عدد ضئيل من النقوش المدونة بالإغريقية، وقد تم جمعها في بادئ الأمر من طرف علماء النقوش الألمان العاملين في أكاديمية (برلين) التي تأسست سنة 1847، بحيث أسندت هذه المهمة في البداية إلى العالم "قوستاف ويلمانس" (G.Willmans)، لكنه توفي قبل أن ينهي عمله، فخلفه في هذه المهمة العالم (Theodor Mommsen) تيودور مومسن وغيره منذ سنة 1863، وقد عمل هو وفريقه على جمع مجموعة من النقوش اللاتينية القديمة في مدونة عرفت باسم "مدونة النقوش اللاتينية" (Corpus Inscriptionum Latinarum) والتي يرمز لها (CIL)، وقد نشر هذا العمل سنة 1881، وهي تشكل مصدرا موثوقا كمادة علمية مخبرية لتوثيق وكتابة تاريخ بلاد المغرب القديم، وتصدر هذه المدونة في مجلدات لا زالت تصدر إلى غاية اليوم، ولقد عمل كل من (مومسن وويلمانس) بتدوين نقوش بلاد المغرب في المجلد الثامن بداية من النقيشة (1 إلى غاية 10988)، ثم أضيف لها ملحق فيما بعد يضم أربعة أجزاء تحوي النقوش ما بين (10988 إلى غاية 28085) كلها تخص تاريخ بلاد المغرب والشمال الإفريقي، وتلت هذه المجموعة، مجموعة ثانية تضم إصدارات عامة ومكاملة حول نقوش الجزائر والأقاليم المغاربية من بينها: "سجل النقوش اللاتينية للجزائر" (Inscriptions latines de l'Algerie) التي جمعها "ستيفان غزال" (St.Gsell) في الجزء الأول سنة 1922، وقد نشر أيضا سجل نقوش أخرى كل من "ستيفان غزال و ألبيرتي" (St.Gsell et) (Albertini) في الجزء الثاني ما بين سنة 1922-1976، كما أن هناك سجلات أخرى نشرها عالم النقوش الألماني "جورج هانس فلووم" (G.H.Pflaum) سنة 1957م.

2/ المؤلفات الكتابية:

1- هيرودوتوس (484 - 420 ق.م): هو مؤرخ يوناني الأصل عاش في القرن الخامس قبل الميلاد أصيل مدينة (هَلِكَرْنَسُوس - Halicarnassus) في الساحل الجنوبي الغربي لآسيا الصغرى، يعتبر كتاب "التاريخ" لهيرودوت من أقدم المصادر التي تتحدث عن شعوب البحر المتوسط خلال القرن الخامس قبل الميلاد، ونظرا لأهميته فقد ترجم إلى العديد من اللغات، ونشرت حوله العديد من الدراسات، ورد كتابه "التاريخ Historia -" في تسعة أجزاء، خصص الأربعة الأولى منها للشعوب الإغريقية غير الإغريقية وتحديد الفرس، غير أن ما وصلنا من أخبار عن المنطقة الجنوبية من البحر المتوسط أي مصر وبلاد المغرب التي كانت تعرف بليبيا أو بلاد اللوبيين، كان قليلا نوعا ما إذا ما حاولنا مقارنته بما نقله لنا عن أخبار الفينيقيين والفرس، فنجد بعض المعلومات المتعلقة ببلاد المغرب (شمال إفريقيا) الواردة في الكتاب الرابع الذي حققه (ستيفان غزال - St.Gsell)، حيث تطرق فيه للحملات الفارسية على شرق لوبيا خلال حكم الملك "داريوس-Darius"، والمعلومات التي تهم منطقة (قورينة)

والاستيطان الإغريقي بها، كما استعرض خصائص منطقة السرت الصغير والكبير وظهيرهما، وذكر عددا من القبائل مبرزاً نط عيشها وتقاليدها، كما تطرق للويين بالقسم الساحلي من (البيزاكيوم- Byzacium) وجزيرتي (جربة -Girba) و (قرقة - Cercina Insula) ، كما اهتم في الكتاب السابع بأولى المجاهبات بين القرطاجيين والإغريق بـ (صقلية) سنة 480 ق.م. إن الأساس الذي استند إليه هيرودوت في تاريخه هو الملاحظة والبحث والاستنتاج وتحليل الوقائع، فهو يعتمد على المعاينة في جمع أخبار الشعوب والمجتمعات وملاحظة عاداتهم وتقاليدهم وتصرفاتهم، أو يعتمد في بعض الأحيان على جمع الروايات التي يأخذها عن محدثيه، وهذا ما يمكن أن نفهمه من قوله: "يقول الفرس"، "يقول المصريون"، "يعارض الأثنيون"... إلخ.

ب- بوليبيوس (Polybius) (200 – 120 ق.م): يعتبر مؤلفه "التاريخ الروماني- Historiae romana" المكتوب بالإغريقية أوثق مصدر عن تاريخ الجمهورية الرومانية ، حيث تطرق فيه للمراحل الأولى من تاريخ الجمهورية الرومانية مستعرضاً علاقاتها بالدولة القرطاجية والمعاهدات، ثم الحرب الأولى بينهما ، كما اهتم بالحرب الثانية والثالثة وسقوط (قرطاجة)، خاصة وأنه عاين حصارها في سنته الأخيرة ، حيث كان برفقة القنصل "سكيبو Scipio – الإيميلي قائد القوات الرومانية ، ويعتبر بوليبيوس مصدراً رئيسياً دراسة حرب المرتزقة ، كما نعتمده في دراسة مؤسسات قرطاجة ونظامها السياسي ، فهو مكمل لأرسطو من هذه الوجهة ، وقد برز صدى دراسته للحرب البونية الثالثة في مؤلفات لاحقيه وخاصة "أبيانوس" ، غير أنه لم يبق من الأربعين كتاباً من تاريخ بوليبيوس سوى الكتب الخمسة الأولى ، وبقيت مقاطع هامة من الكتاب السادس إلى الثامن عشر ، لكن من الكتاب التاسع عشر لا نحتفظ إلا بمقاطع محدودة.

ج- كريسبوس سالستوس (C.Crispus Sallustius) (86- 34 ق.م): كان ينتمي هذا المؤرخ إلى أسرة من العامة، ويناصر "الحزب الديمقراطي- Populares" ويؤيد "يوليوس قيصر Iulius Caesar" ، شغل عدة مناصب في الإدارة الرومانية كتولية في سنة 46 ق.م منصب بروقنصل على مقاطعة (إفريقيا الجديدة)، وأهم مؤلفاته التاريخية "حرب يوغرطة – Bellum Iugurthinum" (111- 105 ق.م) ، وهو كتاب نشر في سنة 41 ق.م ويحتوي على مقدمة فلسفية، ثم عرض لسيرة الملك "يوغرطة" واستيلائه على السلطة في مملكة (نوميديا)، كما كتب مؤلف آخر بعنوان "التاريخ - Historiae" ، تناول فيه الفترة من (78- 67 ق.م)، لم يصلنا منه سوى فقرات ، زيادة على مؤلفه "رسائل إلى قيصر في دستور الدولة – Epistulae ad Caesarem de republica" ويلاحظ على هذا المؤرخ من خلال هذا المؤلف أنه لا يقوم بدور المؤرخ فقط ، بل بدور الكاتب السياسي الذي يحاول الدفاع عن سياسة وزعماء الحزب الديمقراطي، كما أنه يقوم بالكشف عن فساد رجال "الحزب الأرستقراطي - Optimates" ، ومما يعاب على كتاباته عدم مراعاة التسلسل الزمني للحوادث ، وعدم دقة معلوماته الجغرافية ، غير أنه يعتبر فريداً بين المؤرخين الرومان الذين وصلتنا مؤلفاتهم في عزوفه عن طريقة الحوليات وإقباله على كتابة بحث مطول في موضوع واحد.

1- الكتب الجغرافية: نذكر من أبرزهم الجغرافيين خلال مرحلة التاريخ القديم مايلي:

أ- "سترابو-Strabo" (64 ق.م – 21 أو 25م): المعروف خطأً بـ "سترابون" الذي زار (بلاد المغرب القديم) ، فهو يعرفنا من خلال كتابه السابع عشر من مؤلفه "الجغرافية-Geographia" بحدود مملكتنا الماسيل والماسيسيل، وبتاكبيريت (Siga) عاصمة

المملك صيفاقس "Syphax" (118-203 ق.م)، و بحملة الملك الموريطني "بوخوس الأول "Bocchus I" على القبائل الأثيوبية، لكن دون أن يشير إلى أسبابها ونتائجها، كما أنه يتحدث عن التطور الذي شهدته عاصمة المملكة النوميديّة في ظل حكم الملك "مكيسا-Micipsa" (148-118 ق.م)، وكذا لوجود جالية إغريقية بها، إلى جانب العلاقات التجارية التي ربطتها بقبيلة "الفاروزيين" إحدى القبائل التابعة لمملكة (موريطانيا)، زيادة على مواطنه الجغرافي الإغريقي "كلوديوس بطليموس- Claudius Ptolemaei" (100 – 170م) الذي زودنا بمعلومة قيمة في مؤلفه "الجغرافية - Geographia" تخص قبائل ومدن (بلاد المغرب القديم)

ب- بطليموس القلودي أو كلوديوس بطليموس (نحو 100م - 180م): هو رياضي وعالم فلك وجغرافي ومنجم وشاعر إغريقي. من أهل القرن الثاني للميلاد، وُلد نحو سنة 100م وتوفي قُرب الإسكندرية نحو 180م. من أهم كتبه كتاب (الجغرافيا)، وهو معجم جغرافي وأطلس ودراسة عن علم رسم الخرائط، كتبه كلاوديوس بطليموس باللغة اليونانية في الإسكندرية سنة 150 م، وقد جمع فيه كل المعلومات عن جغرافيا العالم التي كانت متوفرة في الإمبراطورية الرومانية في القرن الثاني، ويعتبر هذا الكتاب من أهم مؤلفات بطليموس ذات القيمة التاريخية إلى جانب كتابه «الأطروحة الكبرى». قام بطليموس بتأليف كتاب الجغرافيا اعتمادا على معاجم جغرافية للإمبراطورية الرومانية والفارسية، وقد كان لترجمته إلى اللغة العربية في القرن التاسع وإلى اللاتينية في عام 1406 تأثير كبير على المعرفة الجغرافية والطرق التقليدية لرسم الخرائط في الحضارة الإسلامية وعصر النهضة في أوروبا.